الرؤية النقديّة عند محمود المسعدي

د. عبد القادر الحسون

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – تونس

جامعة الملك فيصل -السعودية

الملخص

عُرِفَ محمود المسعدي أديبا مبدعا كاتبا للرواية ذات النزعة الوجودية، ولكن لم يُعْرَفْ عنه اهتمامه بالنقد ودراسة الأدب رغم ما له من أعمال عبّر فيها عن آراء نقديّة مهمّة، وهي تتوزّع بين حوارات ومحاضرات ومقالات، خصّصها للخوض في قضايا أدبيّة متنوّعة، وقد أصدرها في مناسبات مختلفة وأزمنة متباعدة، ثمّ جمعها وأعاد نشرها في كتاب مخصوص سمّاه "تأصيلا لكيان".

ويمكن لدارس هذا الكتاب أن يستخرج منه ملامح رؤية نقدية متكاملة، تبدو على درجة من الأهمّيّة لأنّها توضّح الخلفية النظرية التي كانت توجّه المسعدي في كتابته الأدبية. ومدار هذه الرؤية على خمسة محاور أساسية هي: مفهوم الأدب ووظائفه ومسألة الأجناس الأدبيّة ومفهوم الالتزام الأدبي وخصائص اللغة الأدبيّة.

الكلمات المفتاحية

محمود المسعدي – الرؤية النقدية – مفهوم الأدب – وظائف الأدب – مفهوم الالتزام – اللغة الأدبية

تمهيد

اشتهر الأديب والمفكّر التونسي محمود المسعدي (1911 - 2004) بكتاباته الأدبية في الرواية والمسرح[1]، وعرف بنزعته الوجودية، فأعماله تطرح قضايا الإنسان ومصيره من وجهة نظر فلسفيّة، وبالإضافة إلى الأعمال الأدبية لمحمود المسعدي مجموعة من الحوارات والمحاضرات والمقالات خاض فيها في قضايا فنيّة ونقديّة وسياسية متنوّعة، وقد صدرت في البداية في مناسبات مختلفة وأزمنة متباعدة، ثمّ جمعها المؤلف، وأعاد نشرها في كتاب مخصوص جعل له عنوانا "تأصيلا لكيان"[2]. ويضمّ هذا الكتاب مقدّمة وأربعة أبواب وخاتمة، الباب الأوّل بعنوان "مقالات ومحاضرات في الأدب والفلسفة والثقافة"، والباب الثاني يضمّ الافتتاحيات المنشورة في مجلّة "المباحث" وعددها خمس عشرة افتتاحيّة، والباب الثالث مقالات سياسية وعددها ستة، والباب الرّابع "في الأدب الأجنبيّ" ويضمّ أربعة فصول. أمّا خاتمة الكتاب فتتألّف من نصّين مقتطفين من كتابه أيّام عمران هما: "يوم القحط" و"حديث الصمت".

إنّ ما لفت انتباهنا في كتاب "تأصيلا لكيان" هي المحاضرات والمقالات التي اهتمّ فيها المسعدي بموضوع الأدب، إذ لاحظنا أنّه من الممكن اتّخاذ هذه الأعمال منطلقا للبحث في نظرته للعديد من المسائل الأدبيّة وللوقوف على أهمّ آرائه النقدية. وما من شكّ في أنّ الاهتمام بهذا الجانب الذي ظلّ مغمورا ولم يلق حظّه من

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

الاهتمام والدرس يمكن أن يساعد على استجلاء أبعاد أخرى في شخصيّة المسعدي، كما يمكن أن يسهم في فهم أدبه وقراءة نصوصه قراءة تتّفق مع طبيعة التصوّرات النظرية المهيمنة على تفكيره. ولعلّه من المفيد كذلك أن نعيد قراءة آراء المسعدي النقديّة لنرى مدى ما يقوم بينها من تماسك وتكامل، فهل هي مجرّد خواطر وآراء عارضة أم أنّها يمكن أن تنسجم وتتآلف في تصوّرات كبرى تحدّد ملامح رؤية نقديّة متكاملة؟

ولتحقيق هذه الغايات التي نسعى إليها اخترنا من محاضرات المسعدي ومقالاته المجموعة التالية:

- أبو العتاهية كما يراه صاحب الأغاني(3)
- أبو العلاء فيما بينك وبين نفسك(4)
- في الأدب(5)
- نظرة في الأدب ومذاهبه(6)
- حماية الأدب والقوميّة العربيّة(7)
- محاضرة للمؤلّف في الأدب عامة وفي أدبه هو خاصّة(8)
- خواطر حول الأدب ومضمونه الفكري(9)
- القوميّة الضيقة في الأدب(10)
- وظيفة الأدب(11)

تضمّ هذه القائمة أعمالا مختلفة في شكلها وفي المواضيع التي تناولتها، فهي تتراوح بين المقال والافتتاحيّة والمحاضرة والحوار، كما أنّ موضوعاتها تختلف بين الخوض في القضايا النظريّة المتّصلة بالأدب والفنّ عامّة وإبداء الرأي في بعض التجارب الإبداعيّة، وتختلف هذه الكتابات أيضا في أزمنة كتابتها وفي المناسبات التي ظهرت فيها. ومع ذلك، فهي تمثّل، في اعتقادنا، مدوّنة متجانسة. فقد تناول فيها صاحبها مجموعة من القضايا والمسائل الأدبيّة يمكن توزيعها على محاور تؤلّف مجتمعة ملامح رؤية نقديّة متكاملة. وأهمّ هذه المحاور مفهوم الأدب ووظائفه ومسألة الأجناس الأدبيّة ومفهوم الالتزام واللغة الأدبيّة.

1- مفهوم الأدب

حاول المسعدي في مواضع عديدة صياغة تعريفات خاصّة للأدب. ويبدو أنّ حرصه على التعريف كان ينبع من اعتقاده بأنّ مفهومه للأدب يختلف اختلافا جوهريّا عن المفاهيم السائدة. وممّا يؤكّد ذلك كثرة التعريفات التي قدّمها والطريقة التي كان يصوغها بها. ومن بين هذه التعريفات عبارته الشهيرة التي أصبحت متداولة بين النقّاد والدّارسين: "الأدب مأساة أو لا يكون"، وقد صاغ هذه العبارة في مقدّمة مقال له سمّاه "أبو العتاهية كما

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

يراه صاحب الأغاني". ولا يخفى أنّ من مواطن الطرافة في هذا التعريف التركيب الذي ورد فيه، فهو تركيب مختصر قائم على النفي والإثبات بطريقة تجعله يبدو أشبه ما يكون بالقاعدة النظريّة المختصرة. ولعلّ ذلك ما جعله قابلا للانتشار والتداول رغم ما يكتنفه من الغموض والالتباس. فكلمة المأساة التي جعلها المسعدي صفة جوهريّة للأدب يلفّها الكثير من الغموض، وقد أدرك هو نفسه ذلك فأضاف على التعريف قوله: "مأساة الإنسان يتردّد بين الألوهيّة والحيوانيّة وتزفّ به في أودية الوجود عواصف آلام العجز والشعور بالعجز: أمام القضاء، أمام الموت، أمام الحياة، أمام الغيب، أمام الآلهة، أمام نفسه..."(12)

يتّضح من خلال ما تضمّنته هذه الإضافة أنّ عبارة "المأساة" تتحدّد وفق بعدين أساسيين هما البعد الإنساني والبعد الوجوديّ، فالمأساة المقصودة هي مأساة الإنسان في الوجود بوصفه كائنا يقع في منزلة بين المنزلتين، وبالتالي فإنّ جوهر الأدب، كما يراه المسعدي، يكمن في الانشغال بالتعبير عن إنسانيّة الإنسان، أي عن منزلته الوجوديّة المخصوصة، لأنّها منزلة تتردّد بين الألوهيّة والحيوانيّة وبين القدرة والعجز وبين الكمال والنقص، وفي ذلك تكمن المأساة. والشعور بهذه المأساة هو الذي يولّد الإبداع وينتج الأدب.

يقوم هذا التصوّر إذن على اعتبار الشعور بالمأساة في بعدها الإنسانيّ باعثا أساسيّا من بواعث الأدب. وقد أكّد المسعدي ذلك في موضع آخر واستبدل عبارة المأساة بعبارة "الغصّة الإنسانيّة"، فذهب إلى أنّ "الفنّ على اختلاف أنواعه وأشكاله ووسائل تعبيره إنّما ينبثق في البشريّة عن ينبوع واحد: الغصّة الإنسانيّة"(13). ومن الواضح أنّه يحاول تعميم التعريف الذي صاغه للأدب على جميع الفنون الأخرى، فهي، وإن اختلفت في كيفيّة التعبير ووسائله، فعبّرت بالكلمة أو بالجسد أو بالأصوات أو بالألوان، فإنّها تظلّ دائما مرتبطة بنفس المصدر ألا وهو الشعور المرهف بـ"المأساة" أو بـ"غصّة الإنسان". فالفنون مجتمعة والأدب واحد منها إنّما تستمدّ ماهيتها ومبرّرات وجودها من دورها في التعبير عن الألم الوجوديّ العميق بكيفيّة تحدّ من وطأته، وتخفّف من حدّته، وتحوّل ما يتّصل به من بشاعة وقبح إلى ألوان من الجمال والحسن.

لقد استمدّ المسعدي من هذا المفهوم الذي صاغه للأدب خاصّة وللفنّ بصفة عامّة معيارا للتميز بين الأدب الحقيقي وأنواع أخرى تسمّى أدبا ولكنّها لا تمتّ إلى جوهر الأدب بصلة. لذلك ألحق بكلّ نوع منها صفة خاصّة تميّزه عن غيره وتدلّ على حقيقته. فمن هذه الأنواع ما سمّاه بـ"الأدب الصغير" وهو رديف التملّق والنفاق والكذب، و"الأدب الكبير" ويقصد به الأخلاق التي تتصف بالصراحة والصدق، و"أدب الهوائيين" أي أصحاب القلوب الفارغة وهو "ألفاظ في ألفاظ، ورواية في غير دراية، ولغو قصير المعنى"، و"أدب الصناعة" يتاجر به أصحابه ويتّخذونه بضاعة يسترزقون منها، و"أدب اللفظيين" وهو الذي يعنى أصحابه بفخامة الألفاظ على

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

حساب المعنى. وحيال هذه الأنواع مجتمعة يوجد نوع آخر يقول عنه المسعدي: "الأدب الذي لا ينعت ولا يضاف، واحد مفرد، وخلاء ووحشة، لأنّه الأقصى ولأنّه المحنة: بلوى ذاتيّة لا يعرفها إلاّ الذين عرّضوا أنفسهم لكلّ بليّة باطنة، وكلّ معضلة دخيلة، ودوّت التجربة في صدورهم بجميع أصداء الكون والصيرورة والفساد، فهم ينشؤون الإنسان والكيان إنشاء..."(14)

إذا أعدنا التفكير في عبارة المسعدي الشهيرة التي عرّف بها الأدب بوصفه مأساة أو لا يكون في ضوء هذه التفريعات التي وضعها تأكّد لنا أنّه كان يحاول بناء تصوّر جديد للأدب يختلف عن التصوّرات السائدة. فالنفي في تلك العبارة متعلّق برفض ما استقرّ في الأذهان من أفكار تربط الأدب بالأخلاق أو تجعله مجرّد صناعة لفظيّة وتلاعب بالكلمات لا يقصد به أصحابه سوى الهزل أو التملّق. فهذه الأفكار تجرّد الأدب من حقيقته التي يريد المسعدي إثباتها له، ومدار هذه الحقيقة على المأساة اختصارا، وعلى وجوهها ومشتقاتها مثل الخلاء والوحشة والمحنة والبلوى والبليّة والمعضلة بشيء من الإلحاح والتوسّع.

ولعلّه من الطريف أن نلاحظ إذن أنّ التفريعات التي اقترحها المسعدي تنسجم مع التعريف المختصر الذي وضعه للأدب وتبدو مستمدّة منه ومبنية عليه. وبذلك تتشكّل ملامح رؤية متكاملة يرتبط فيها الفرع بالأصل، فإذا كان مفهوم الأدب يقضي بأنّه "مأساة أو لا يكون" فإنّ أنواعه وفروعه تتحدّد بمقدار اقترابها أو ابتعادها عن هذا المفهوم. فكلّما صدر الأديب عن إحساس مرهف وتجربة شعوريّة تتمثّل التجربة الوجوديّة في أبعادها الإنسانيّة وتعبّر عنها تعبيرا صادقا حاز إنتاجه سمة التفرّد وكان أقرب إلى طبيعة الأدب وحقيقته. وعلى العكس من ذلك فإنّه يبتعد عنها إذا ما انصرف إلى التصنّع وتوخّى سبيل من لا يرى من الأدب سوى زخرفة الألفاظ وجعجعة الأصوات والتلاعب بالمحسّنات.

ممّا يؤكّد لنا أنّ التعريف الذي حدّده المسعدي للأدب لم يكن تعريفا عارضا، بل كان وليد رؤية نقديّة متكاملة، ترمي إلى إرساء تصوّر جديد يختلف اختلافا جوهريّا عن التصوّرات السائدة، أنّنا نجد المؤلّف في كتاباته المختلفة يقلّب هذا التعريف على وجوه مختلفة، ويحاول ترسيخه من جميع الزوايا المتعلّقة بالعمليّة الإبداعيّة. لذلك صاغ تعريفات أخرى للأدب منها ما نظر فيه من زاوية الوظيفة، ومنها ما يتعلّق بالأديب المنشئ ومنها ما يتّصل بالقارئ المتقبّل.

فأمّا تحديد مفهوم الأدب على أساس وظيفته فيقول المسعدي: "ولعلّ أحسن تعريف للأدب باعتبار جماع وظيفته هو أنّه العبارة الشاملة عن الإنسان في كليّة حياته الباطنة أي في حياته الفكريّة، في حياته الخياليّة، في حياته التصويريّة، في حياته الشعوريّة، في حياته العاطفيّة."(15)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

وأمّا تعريفه الأدب من زاوية الأديب فقوله: "الأدب هو عند الأديب تجربة وجوديّة بالنسبة للكاتب نفسه، ثمّ هو تجربة يفرزها الكاتب بعد أن يعيشها، إفرازا من نفسه ومن صميم قلبه، يخرجها من ذاته ويطرحها بين الناس... وذلك هو الأدب الذي هو الخالد والذي هو الباقي، والذي لا يختلف من حضارة إلى حضارة ولا من أدب إلى أدب."(16)

وأمّا تعريف الأدب من زاوية القارئ فيقول فيه المسعدي: "الأدب الحقّ، الأدب الخالص هو الذي تقرؤه فتتحرّك نفسك وتشعر بأنّ الذي يخاطبك من خلاله هو أخوك أو صنوك الذي أدرك إدراكا بيّنا أو أحسّ بصورة واضحة ما كنت تحوم عليه أنت من إحساس أو فكر، أو كنت تشعر به أنت شعورا غامضا دون أن تسيطر عليه بالوعي الجليّ والرؤية البيّنة، فأعانك على إدراكه وامتلاكه."(17)

لئن اختلف الزوايا التي نظر منها المسعدي إلى الأدب محاولا في كل مرّة البحث عن تعريف جامع مانع له، فإنّ هناك أمورا مشتركة لا بدّ من التوقّف عندها. ومن أبرز هذه الأمور أنّ المقصود بالتعريف هو ما سمّاه المسعدي بالأدب "الحقّ" أو "الخالص" أو "الخالد" أو "الباقي". وممّا لا شكّ فيه أنّ تأكيد هذه الصفات يعني ضمنيا نفيا لأضدادها. وبالتالي فإنّ كلّ ما يوصف بالعكس فيقال فيه إنّه "مزيّف" و"مدخول" و"زائل" لا يصحّ اعتباره من الأدب وإن أطلق عليه هذا الاسم لأنّه لا يستجيب للشروط الأساسيّة التي بها يسمّى الأدب أدبا.

وممّا تشترك فيه التعريفات الثلاثة اعتبارها الإنسان محور الأدب. الإنسان في أبعاده الوجدانيّة والشعوريّة، أي ما يمثّل ماهيته بوصفه كائنا حيّا يتميّز بأنّه يحسّ ويشعر ويفكّر ويتأمّل في الوجود محاولا فهمه وإدراكه. ووظيفة الأدب منوطة بالتعبير عن هذه الأبعاد دون سواها، فهو ينشأ منها إذ يفرزه الأديب من نفسه ومن صميم قلبه. ومعيار صدقه أو عدم صدقه في التعبير عن هذه الأبعاد إنّما يتحدّد وفق ما يشعر به القارئ أو المتقبّل باعتباره إنسانا، أي أنّه يشترك مع المبدع في أبعاده الإنسانيّة وما يتولّد عنها من حيرة وجوديّة ورغبة في الفهم وسبر الأغوار. وبالتالي فإنّه كلّما حرّك النصّ وجدان قارئه وأشركه في الحيرة ولبّى طموحه لكشف الأسرار وزاده معرفة بحقيقة نفسه كان ذلك دليلا على انتمائه إلى الأدب الحقيقيّ.

لا يفوتنا أيضا أن نلاحظ أنّ التعريفات المقترحة تشترك في الإلحاح على صياغة مفهوم للأدب يبدو على درجة كبيرة من التجريد والتعالي، إذ يعدّ الأدب، حسب المسعدي، من الجواهر الخالدة التي لا تتغيّر بتغير الزمان أو المكان، ومردّ هذا الإطلاق في التعريف يعود إلى ما أشرنا إليه من أنّ المقصود بالتحديد ليس الأدب بل حقيقته وجوهره من ناحية أولى، ومن أنّ محور الأدب، كما يراه المسعدي، ليس الإنسان محدودا بالزمان والمكان وإنّما هي إنسانيّة الإنسان أينما حلّ وكيفما كان. ولما كانت أسس التعريف وأركانه مستمدّة من المجرّدات والمعاني الكليّة

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

المتعالية بصرف النظر عن تجلياتها الواقعيّة فلا غرابة إذن في أن تعريف الأدب عند المسعدي جاء موغلا في التعميم والتجريد متعلّقا بما ينبغي أن يكون لا بما هو كائن.

ولعلّ في بروز البعد التجريدي لمفهوم الأدب عند المسعدي ما يؤكّد لنا أنّه كان يصدر فيه عن رؤية نقديّة تنبني على عناصر متكاملة. وإذا كان مفهوم الأدب يمثّل حجر الزاوية في هذه الرؤية فإنّ الكشف عن أهمّ ملامحها يستدعي النظر في بقيّة الأركان التي تنبني عليها مثل وظائف الأدب وأجناسه وخصائصه الفنية.

2- وظائف الأدب

لا يتحدّد مفهوم الأدب بماهيته فحسب وإنّما يتحدّد أيضا بطبيعة الوظائف المنوطة به. فهو بوصفه نشاطا إنسانيا قديما قدم الإنسان مستمرّا باستمراريته لا بدّ أن يكون نشاطا هادفا وإلاّ لما كانت هناك مبرّرات لوجوده واستمراره. من هذا المنطلق فكّر المسعدي في وظائف الأدب، فحاول تحديدها تحديدا مفصّلا حينا ومجملا أحيانا أخرى، مركّزا في جميع الأحوال على إبراز ما ينتجه الأدب من آثار إيجابيّة في الإنسان.

فمن جهة التفصيل استخدم المسعدي مجموعة من الصفات التي تبيّن فعل الأدب وأثره، فأكّد أنّ وظيفة الأدب في أن يكون "مثيرا للتفكير" "مبعثا للخيال" "مغذيا للإحساس ومزكّيا له، مغذّيا للحساسيّة الجماليّة، موحيا بالشعر، مربّيا للطاقة الشعريّة في النفس". وإذ أمعنا النظر في الصفات والأسماء المتعلّقة بها لا حظنا أنّ للأدب وظيفة الفعل الإيجابي المباشر في الجانب الإنساني في الإنسان أي في أفكاره وخياله ومشاعره وأحاسيسه. فهذا الجانب الذي يمثّل الباعث الرئيسيّ من بواعث إنتاج الأدب هو، في الوقت نفسه، المقصد الأسنى الذي يتّجه إليه.

واعتمادا على ما ذكره المسعدي يمكن أن نحدّد للأدب ثلاث وظائف أساسيّة:

- الوظيفة الأولى هي الوظيفة العقليّة، ومدارها على إثارة العقول للتفكير والتأمّل والتعمّق في الأشياء واستنباط الحقائق منها.

- والوظيفة الثانية هي الوظيفة التخييليّة، فبين الأدب والخيال علاقة جدليّة، إذ أنّ الخيال ينتج الأدب، والأدب بدوره ينمّي الخيال ويغذّيه ويوسّع آفاقه ويوفّر له الرموز والصور التي تجعله ينطلق إلى أبعاد لا ينفذ لها العقل إذا ما هو اكتفى بمجرّد التفكير والتأمّل.

- والوظيفة الثالثة هي الوظيفة الجماليّة أو الشعريّة وهي تتعلّق بالأدب باعتباره فنّا، وهو ما يجعله يحقّق المتعة الجماليّة التي هي من أخصّ خصائص الكائن البشري.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

إنّ أهمّ ما يمكن استخراجه من هذه الوظائف يتمثّل في دور الأدب في تنمية الملكات الفطريّة لدى الإنسان، فهو الذي ينشّط هذه الملكات ويحرّكها ويجعلها تنتقل من الانفعال إلى الفعل، وليس ذلك بالأمر الهيّن والبسيط، فبواسطته يكتسب الإنسان القيمة المضافة التي تتحقّق بها إنسانيته. لذلك فإنّ وظائف الأدب وإن بدت مختلفة فهي تتكامل فيما بينها لأنّها لا تقتصر في الإنسان على بعد واحد، وإنّما تستهدفه في كلّيته، وفي مختلف الجوانب المكوّنة لكيانه من عقله وتفكيره إلى خياله وتصوّراته إلى ذوقه وإحساسه. وبهذا يتميّز الأدب عن غيره من الأنشطة المعرفيّة والعلميّة التي يقتصر دورها، في الغالب، على الاهتمام بجانب واحد من جوانب شخصيّة الإنسان، وفي المقابل فإنّ الأدب يعتبر نشاطا ذهنيّا مركّبا لأنّه يثير، في الوقت نفسه، جميع الملكات الذهنيّة ويتطلّب تفاعلها ويوفّر لكلّ منها الطاقة الضروريّة التي تجعلها تنمو وتزداد حيويّة.

لعلّ إدراك المسعدي لأهميّة الأدب وخطورة وظائفه هو الذي دفعه إلى الانتقال من التفصيل إلى الإجمال ليؤكّد أنّ الأدب هو "سبيل الإنسان إلى إنسانيته وطريقه إلى كيانه ووجوده وذاتيته " بل إنّه يرى أنّ: "السبيل التي وحدها تفضي بالإنسان إلى تحقيق إنسانيته على أجمل صورة وأبدع تكوين وأحسن تقويم هي طريق الأدب" وهو يقطع جازما: "بل قل إنّه لا إنسان بلا أدب ولا إنسانيّة بدون أدب، وأنّ الفرد الذي يخطئ سبيل الأدب وسبيل التربية والتكوين بالأدب في حكم الميّت، وكذلك المجموعة البشريّة التي لا يكون لها أدب تفرزه من صميمها لتعبّر به عن وجودها وكيانها وذاتيتها هي أيضا في حكم الميّت."(18)

إنّ وظيفة الأدب إذن، كما يتصوّرها المسعدي ويلحّ عليها، هي وظيفة سامية وعلى درجة قصوى من الخطورة والأهميّة إلى حدّ أنّ الاستغناء عنها يؤدّي إلى الموت الرمزيّ للأفراد وللجماعات البشريّة على حدّ سواء. والمقصود بالموت الرمزيّ في هذا السياق هو فقدان الإنسان لإنسانيته التي بها يتميّز عن سائر الكائنات. فالأدب هو خزّان القيم وهو مصدر الخيال والإحساس ومربّي الذوق، وبالتالي فإنّه يعطي للحياة معنى، ويجعل الإنسان يشعر بوجوده، لذلك فإنّ فقدانه يعني فقدان المعنى وتعطّل الإحساس. وليس أدلّ على الموت من أن تفقد الحياة معناها وتتعطّل في الإنسان أحاسيسه.

إذا ما استحضرنا في هذا السياق منزلة الإنسان في الوجود باعتباره "يتردّد بين الألوهيّة والحيوانيّة"، كما قرّر المسعدي، ساعدنا ذلك على إدراك معنى السموّ والخطورة في وظيفة الأدب. فهو ينظر إلى المنزلة الإنسانيّة على أنّها منزلة وسطى بين حدّين متقابلين، أحدهما يجذبه إلى السموّ والرّفعة، والثاني يشدّه إلى الدونيّة والوضاعة. لذلك بات أمرا محتوما أن يكرّس الإنسان حياته لنحت كيان ينأى به عن مرتبة الحيوانيّة ويرفعه إلى المرتبة الألوهيّة. وليس له من سبيل إلى ذلك إلاّ بشحذ الرّوح وإثرائها بكلّ ما من شأنه أن يدعّم اتصالها بأصلها السرمديّ الخالد. ولما

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

كان الأدب يثري الرّوح ويغني الخيال ويربّي النفوس ويعطف القلوب على القيم الأصليّة فقد بان أنّ سموّ وظيفته إنّما هي من سموّ المكانة التي به يرتفع الإنسان إليها. ولهذا فإنّ استغناءه عن الأدب يعني بالضرورة التخلّي عمّا في نفسه من إمكانيات السموّ والرفعة.

واستكمالا لهذا التصوّر حول وظيفة الأدب قرّر المسعدي أنّه يفضي على الصعيد الإنسانيّ إلى ثلاث نتائج في غاية الأهميّة هي "خلق الصفات المميّزة للذات أو خلق الشخصيّة، وإلى إعطاء الذات قدرة على السموّ فوق غيرها ، وإلى إكساب الذات البشريّة طاقة الصيرورة المتواصلة والتحوّل الدّائم والتجاوز المستمرّ"[(19)]. ولعلّه لا يخفى أنّ هذه النتائج هي بمثابة الفروع التي تتولّد من الوظيفة الأساسيّة. فتحقيق إنسانيّة الإنسان لا يتمّ وفق التصوّر الفلسفي الذي يصدر عنه المسعدي دفعة واحدة، وإنّما هو سيرورة ومشروع متواصل يفضي إلى ما يسميه بـ"نحت الكيان" أو "صقله وبلورته". ويمثلّ الأدب الأداة الأساسيّة في عمليّة النحت هذه، فشخصيّة الفرد هي محصّلة ما يرسّخه فيه الأدب من تعلّق بمجموع القيم الأصيلة مثل الحبّ والحريّة والعدل والتضحية والإيثار وغيرها، وتعلّقه بهذه القيم النبيلة وتحويلها إلى ممارسة في الحياة وسلوك ينظّم علاقاته بغيره هو ما يحقّق له النبل والسموّ والرفعة، وارتفاعه إلى هذه المرتبة يجعله على استعداد متواصل للتعلق بما هو أفضل لأنّ حياته لم تعد مكرّسة لضمان البقاء فحسب بل سيصبح هدفها الرئيسيّ تحقيق حسن البقاء.

هكذا يتّضح إذن أنّ وظائف الأدب هي سلسلة من النتائج الإيجابيّة المترابطة، يفضي بعضها إلى بعض وفق تصوّر نظري محكم تقود فيه المقدمات إلى النتائج، فإذا وافقنا على أنّ إنسانيّة الإنسان ليست معطى جاهزا بل هي مشروع قابل للبناء قادنا ذلك إلى أنّه يحتاج بالضرورة إلى تطوير معارفه وتنمية ملكاته ليتوصّل إلى تحقيق إنسانيته ويتمكّن من إضفاء المعنى على وجوده. وإذا سلّمنا أنّ الأدب هو الذي ينشط ملكات الإنسان ويخرجها من طور الكمون إلى طور الفعل بات من الضروريّ أنّ نسلّم بأنّه السبيل الأوحد لنحت كيانه وبناء شخصيّته. وإذا أقررنا أنّ إكساب الشخصيّة الصفات المميّزة وإثراءها بالقيم النبيلة هو من فعل الأدب دون سواه أقررنا، تبعا لذلك، أنّ الإنسان محتاج إليه ليغذي روحه ويوفّر لها طاقة السموّ والرّفعة حاجته إلى الغذاء لينمّي جسده ويضمن له شروط البقاء والعيش.

ما من شكّ في أنّ التسليم بأهميّة الأدب وسموّ الوظائف التي يضطلع بها لا يمكن أن يكون محلّ اختلاف، فقد كانت له في الثقافة البشريّة مكانة مرموقة منذ أقدم العصور، ولازم حضوره تطوّر الشعوب وتحضّرها، واتّخذته الأمم وسيلة للتربية وترسيخ القيم وتخليد المآثر. ولكنّ ذلك كلّه لا يمنع من التساؤل عن الشروط التي ينبغي أن تتوفّر فيه ليؤدّي وظائفه هذه على أحسن وجه.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

3- مفهوم الالتزام

يعدّ مفهوم "الالتزام" من أهمّ المفاهيم التي شاعت بين الأدباء والنقّاد خلال منتصف القرن العشرين. ويمكن أن نرجع انتشار هذا المفهوم إلى عوامل عديدة ومختلفة، لعلّ أبرزها ما خلّفته الحروب الكونيّة من نتائج كارثيّة دفعت المثقفين والمفكرين إلى إعادة النظر في الثقافة الإنسانيّة والدعوة إلى بناء مفاهيم جديدة تحدّ من شراسة الإنسان وجبروته. كما أنّ هذا المفهوم لازم ظهوره انتشار الإيديولوجيات والمذاهب الفكريّة والفلسفيّة ذات النزعة الإنسانيّة التي حاولت أن تصوغ تصوّرات جديدة لفهم الوجود والإنسان.

المهمّ، أنّه في هذا السياق العام انتشر مفهوم الالتزام بين الأدباء والمفكرين وأصبح بمثابة المذهب الأدبي الذي ينعت به الأديب وينعت به أدبه. وقد كان محمود المسعدي أحد الأدباء الذين تبنّوا مفهوم الالتزام، بل إنّه يعتبره شرطا أساسيا من شروط الأدب، فهو يقول: "الالتزام عندي خاصيّة جوهريّة لا تفارق الأدب إلاّ انتفت عنه صفة الأدب. وهي خاصيّة تؤول إلى ملاصقة الأدب وملابسته للمشاكل الإنسانيّة الدائمة الأبديّة التي لا تزول إلاّ بزوال الإنسان والوجود. وعلى هذا الفهم فالالتزام موجود في جميع الآداب الأصيلة سواء كانت عربيّة أم غيرها وقديمة أم حديثة."[20]

إنّ المسعدي لا يعتبر الالتزام مذهبا حديثا في الأدب بل يعتبره خاصيّة جوهريّة من خاصياته، أي عنصرا أصيلا من العناصر المحدّدة لماهيته، وهذه الخاصيّة هي التي تجعل الأدب وسيلة للتعبير عن قضايا الإنسان الوجوديّة. ولما كانت هذه القضايا لها صفة الشموليّة لأنّها متّصلة بالإنسان بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو العصر الذي يعيش فيه، فإنّ الالتزام، تبعا لذلك، لا يمكن أن يعدّ مذهبا أدبيّا مستحدثا، وإنّما هو صفة ملازمة للأدب متى تحقّق فيه شرط الأصالة. والمقصود بالأصالة في هذا السياق أن تتوفّر فيه الشروط الأساسيّة التي بها يكون أدبا حقيقيا.

لقد تعرّضنا أثناء البحث في مفهوم الأدب ووظائفه إلى أنّ من أهمّ الشروط المحقّقة لماهية الأدب أن يكون مرتبطا بإنسانيّة الإنسان معبّرا عن منزلته في الوجود صادرا عن الإحساس العميق بما يكتنف هذه المنزلة من مفارقات تولّد الشعور بالألم ملبّيا للحاجات الدفينة لفهم الحقائق وكشف الأسرار مؤمنا بأنّ وظيفته الأساسيّة أن يكون سبيل الإنسان إلى إنسانيته. ولهذا فإنّ مفهوم الالتزام يغدو بمثابة الصفة الجامعة التي تختزل هذه الشروط التي تتوقّف عليها أصالة الأدب من عدمها.

بناء على هذا التصوّر فإنّ الالتزام يعتبر بمثابة النقيض لجميع الحالات التي يخلّ فيها الأديب بشروط الأدب وخصائصه الجوهريّة. ولعلّ ذلك ما عناه المسعدي في قوله: "الالتزام في الأدب لا يعدو (في معناه الصحيح

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

عندي) أن يكون الأدب ملتزما لجوهريّ الشؤون منصرفا عن الزخرف اللفظيّ وعن الزينة الصوريّة التي هي لغو ووهم وخداع"[21]. إنّ ما تضمّنه هذا التعريف لمفهوم الالتزام من مقابلة بين الجوهر والعرض يكشف لنا أهمّ الأسس التي ينبني عليها تصوّر المسعدي للأدب، فجوهر الأدب يكمن، حسب رأيه، في مضمونه الفكريّ باعتباره رسالة ملتزمة بأهداف نبيلة تخصّ مصير الإنسان ومنزلته الوجوديّة، أمّا ما سوى ذلك من عناية بالزخرف اللفظيّ وفنون التصوير فهي مجرّد زخرف عرضيّ لا يمت بصلة إلى حقيقة الأدب وجوهره، بل إنّه يمكن أن يفسده ويقلّل من شأنه، إذا ما أفرط الأديب في الاهتمام به وجعله مقصده الأوحد وغايته القصوى.

لقد استمدّ المسعدي من هذا التصوّر الثنائيّ القائم على التمييز بين الجوهر والعرض معيارا لنقد الأدب وتصنيف الآثار الأدبيّة القديمة والحديثة العربيّة والأجنبيّة. فهو يرى أنّ أدب القرون الوسطى في الشرق لا تتحقّق فيه شروط الأدب لأنّ الأدباء تخلّوا عن الاهتمام بالجوهر وانصرفوا إلى العناية بالعرض إذ "لطالما تلهّوا بجعجعة الألفاظ وتصفيق القوافي والأوزان وألعاب محسنات البديع والبيان"[22]. وفي مقابل هذه النزعة البديعيّة التي أفسدت الأدباء كان هناك أدباء تميّزوا بتجارب إبداعيّة تحقّقت فيها شروط الأدب كأحسن ما يكون. ومن أهمّ هذه التجارب يذكر المسعدي من العرب القدماء أبا الفرج الاصبهاني وأبا حيّان التوحيدي وأبا العلاء المعرّي وأبا العتاهية وأبا نواس، فهؤلاء هم الذين مثّلوا الأدب على حقيقته، ولذلك فإنّه حريّ بمن يريد قراءة الأدب أن يعود إلى آثارهم لا أن يستعين بما كتبه العسكري وغيره من كتاب البلاغة، فلا توجد في مؤلفاتهم سوى القوالب الجاهزة والقواعد الجامدة لأساليب الزخرف والمحسنات.

أمّا من الآداب الأجنبيّة فقد اختار المسعدي التمثيل لمفهوم الالتزام في الأدب عمر الخيام من الفرس وإسخيلوس وإربيد من اليونان وشكسبير من الإنجليز، هذا عن القدماء أمّا المعاصرين فهم كثير، في نظره، "منهم النرويجي إبسان، والروسي دستويفسكي، والألمانيان نيتشه وجوته، والفرنسيون فاليري وجيرودو وسانت إكسوبري ومالرو" ومن العرب المعاصرين اكتفى بذكر الشابي وبعض ما كتبه توفيق الحكيم.

يحاول المسعدي انطلاقا من هذا التصنيف الذي وضعه للأدباء أن يؤكّد ثلاثة اعتبارات أساسيّة في تحديد مفهوم الالتزام:

– الاعتبار الأوّل أنّ الالتزام ليس مذهبا أدبيا حديثا لأنّه المذهب المميّز لجميع التجارب الإبداعيّة الخالدة على ما بينها من اختلافات في اللغة والمحتوى والأسلوب والعصر.

– الاعتبار الثاني أنّ جميع الشعوب عرفت الأدب الملتزم بظهور أدباء كبار مثّلوا منارات لأنّهم أنتجوا أثارا أدبيّة نالت الخلود والتميّز.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

– والاعتبار الثالث أنّ خصوصيّة الأدب الملتزم لا تنفي عنه صفة الإنسانيّة، فالآثار الأدبيّة لا تكون حكرا على الثقافة المحليّة التي أنتجتها وإنّما هي تفيض عن أطرها الحضاريّة والزمانيّة والجغرافيّة واللغويّة الضيّقة لتتحوّل إلى تراث إنسانيّ مشترك.

وفي ضوء هذه الاعتبارات يتّضح أنّ مفهوم الالتزام ينسجم مع سائر التصوّرات التي صاغ منها المسعدي مفهومه للأدب وحدّد له وظائفه. فالأدب الملتزم هو الذي يكرّس تلك الوظائف ويحقّق ذلك المفهوم. وإذا كان الانسجام والتكامل بين هذه القضايا التي انشغل المسعدي بالتفكير فيها يدلّ على أنّه كان يصدر عن تصوّر نظريّ متماسك فإنّ نزعته إلى التعميم والإطلاق لبناء رؤية نقديّة متكاملة وحرصه على اعتبار المضمون مقوّما أساسيا للأدب يدفعنا إلى التساؤل عن مواقفه من النواحي الشكليّة التي تجعل نصّا أدبيّا مختلفا عن الآخر.

4– الأجناس الأدبيّة

من المعروف أنّ الآثار الأدبيّة التي كتبها محمود المسعدي أثارت جدلا واسعا حول الأجناس الأدبيّة التي تنتمي إليها، فكتاب "السدّ" ظلّ النقاد والدارسون يتردّدون في اعتباره نصّا مسرحيّا أو رواية. وكتاب "حدّث أبو هريرة قال..." ليس أقلّ حظّا في إثارة هذا الجدل فهو يتردّد بين الخبر والمقامة والرواية.

ويبدو أنّ عدم التمييز بين الأجناس كان اختيارا فنيّا مقصودا من المسعدي في كتاباته الإبداعيّة، وما يؤكّد ذلك أنّه لم يكن يعتقد في وجود فوارق مهمّة بين الأجناس الأدبيّة، ويقول في هذا الصدد: "وليس عندي بين القصّة أو المسرحيّة وغير المسرحيّة فرق إلاّ في ظاهر الصورة وشكل الإخراج أمّا الجوهر فواحد"[23]. ومن الواضح أنّ هذا الرأي ينبني هو أيضا على ثنائيّة العرض والجوهر المستمدّة من التصوّر العام لمفهوم الأدب، فالأجناس الأدبيّة هي مجرّد تصنيفات شكليّة تتعلّق بمظهر الكتابة وصورتها الخارجيّة، أمّا حقيقة الأدب المتعالية فهي مضمونه الإنساني. وإذا ما توفّر هذا المضمون فليس من المهمّ في أيّ شكل يقع إخراجه.

لقد أكّد المسعدي أهميّة البعد الإنساني في الأدب واعتمد عليه في تبرير رأيه في مسألة الأجناس الأدبيّة، يقول: "لا فرق عندي بين ما تفرّقون من اتجاهات الأدب ومذاهبه لأنّها لا تكون في الأدب الأصيل إلاّ فروعا لشجرة واحدة أو جداول لنهر واحد... والشجرة أو النهر هي الإنسانيّة أي مصير الإنسان وشأنه في الوجود"[24]. وما يمكن استيحاؤه من هذه الصورة القائمة على التشبيه أنّ المسعدي يرى أنّ اختلاف الأجناس الأدبيّة يثري الأدب بما يضفي عليه من تنوّع وتعدّد، ولكنّه لا يغيّر حقيقته، وبالتالي فإنّه لا يمكن أن يكون معيار تفاضل بين نصّ أدبيّ وآخر.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

وللمسعدي رأي طريف في مسألة الأجناس يتمثّل في اعتبار القصّة هي الجنس الأدبي الوحيد الذي تتفرّع عنه بقيّة الأنواع، فهو يرى أنّ "الأدب كلّه قَصَصٌ مختلف الأنواع ما دام يردّد على الدهر خبر الوجود الإنساني ويقلّب تصوير مشاكله على مختلف الوجوه"(25). ويستمدّ هذا الرأي طرافته من أنّه ينزّل نظرة المسعدي لمسألة الأجناس في إطار نظرته للحياة بصفة عامة، وقد عبّر عن هذه النظرة في كتاب "السدّ" على لسان "غيلان" بطل المسرحية الذي جعله يصرّح أنّ "كلّ شيء قصّة..." وأنّ "الحياة هي وظيفة الإنسان في القصّة، والعمر مداها"(26)

ومن المهمّ الإشارة إلى أنّ كلمة "القصّة"، كما يستخدمها المسعدي، ليست مصطلحا دقيقا يعني الجنس الأدبيّ المعروف بهذا الاسم، بل هو يقصد بها المعنى اللغوي الأوّل لهذه الكلمة، أي دلالتها على معنى الإخبار والرّواية. ويبدو أنّ المسعدي قد وجد في هذا المعنى ما يساعد على بناء تصوّر عام يرتكز على النظر إلى مختلف الأجناس الأدبيّة بوصفها أشكالا مختلفة للقصّ والإخبار. فالقصّة يمكن أن تكون سرديّة أو مسرحيّة أو شعريّة. وعلى هذا الأساس فإنّ للأدب جنسا واحدا هو القصّ، وأنواعا تتفرّع عنه هي سائر ما كان يعتبره النقّاد أجناسا أدبيّة. واختلاف هذه الأنواع لا يغيّر شيئا من حقيقة الأدب لأنّها لا تختلف إلاّ في النواحي الشكليّة بينما تتحدّد ماهية الأدب وحقيقته انطلاقا من مضمونه الإنساني.

ولعلّه يبدو واضحا أنّ الموقف المتّخذ من مسألة الأجناس الأدبيّة يستند إلى تصوّر ينظر إلى الأدب في أبعاده الوظيفيّة ويعتبرها أهمّ من الجوانب الشكليّة، وبما أنّ الأسس التي ينبني عليها التمييز بين أجناس الأدب هي أسس شكليّة بالدرجة الأولى فإنّ ذلك يقود بالضرورة إلى الاستنقاص من أهميّة هذه الأجناس والتأكيد على أنّها مجرّد قوالب يلجأ إليها الأدباء ويتّخذونها أطرا للتعبير عن القضايا الإنسانيّة التي ينشغلون بها.

يقوم هذا التصوّر على أساس الفصل بين شكل الأدب ومضمونه مع تفضيل المضمون على الشكل، ولئن كان من الممكن إرجاع هذا الرأي إلى خلفيات فكريّة ونقديّة قديمة كانت تفصل بين الألفاظ والمعاني وتعتبر الألفاظ معارض والمعاني جواهر، فإنّ حضوره بشكل بارز في رؤية المسعدي النقديّة يعود، في اعتقادنا، إلى تبنّيه لمفهوم الالتزام، وقد اقترن هذا المفهوم بنظرة خاصّة تؤكّد أنّ الالتزام في الأدب لا يتحقّق إلاّ إذا ركّز الأديب اهتمامه على التعبير عن القضايا الإنسانيّة وابتعد عن الفهم الذي يجعل الأدب صناعة لفظيّة وتلاعبا بالكلمات تحت شعار "الفنّ للفنّ"، فالمهمّ في النصّ الأدبي يكمن في الوظائف التي يؤدّيها لا في الكيفيّة التي تؤدّى بها هذه الوظائف.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

وما من شكّ في أنّ هذه النظرة التي تعلي من شأن محتوى النصّ الأدبي على حساب شكله تدعونا إلى التساؤل عن النواحي الفنيّة والجمالية التي يتميّز بها الكلام الأدبي عن الكلام العادي. فهل يكفي التعبير عن الإنسانيّ والالتزام بمعالجة القضايا الوجوديّة ليكتسب الكلام صفة الأدب ؟

5- لغة الأدب

يمكن أن نستشفّ من تعليقات المسعدي على بعض المسائل المتّصلة بلغة الأدب ملامح رؤيته الجماليّة، فالجانب الفنّي والجماليّ في النصّ الأدبي يكمن بالأساس في اللّغة التي بها يكتب. وقد أدرك المسعدي أنّ أخصّ ما يميّز لغة الأدب يتمثّل في كونها لا تعتمد أساليب التعبير المباشر، كما هو الشأن في الكلام العادي، بل تتوخّى أساليب التعبير الرمزيّ غير المباشر التي تقوم على التلميح والإشارة.

ويعتبر المسعدي أنّ اللغة العربيّة تستجيب لمتطلّبات اللغة الأدبيّة، يقول في هذا السياق: "اللغة التي أكتب بها كلّها رمز لطيف، إذ العربيّة تكره التكرار والتحليل والإلحاح والتفهيم الثقيل وهي بالطبع لا تليق إلاّ بذوي الأفهام الخاطفة وذوي الوجدان الحسّاس المجرّب المتيقّظ، فحيث نجد لغة أخرى تركّب المقدّمات على المقدّمات وتتدرّج بالقارئ أو السّامع في سلّم التحليل العقلي والاستدلال المنطقي حتّى تبلغ به النتائج كما يدرج الصبي أو القاصر عن الخطو بنفسه نجد العربيّة ترسل الكلام وثبات كوثب الطير العتيد وتقفز بالقارئ قفزا وتطفر به طفرا طاوية من اللفظ كلّ ما يستغنى عنه في تأدية ثنايا المعاني المفهومة"(27)

نستنتج من هذا القول أنّ أهمّ مقوّمات اللغة الرمزيّة، كما تتجلّى في اللغة العربيّة تتمثّل في بلاغة الإيحاء القائمة على "إجاعة اللفظ وإشباع المعنى" بعبارة القدماء، ولغة الأدب، كما يراها المسعدي، تحتاج إلى الإيجاز والاختصار لأنّها تعتمد الرمز، ومن أهمّ ما يتميّز به الرمز قدرته على الإيحاء وتكثيف الدلالة، فهو لا يكتفي بالمعنى اللغويّ للكلمة بل يضيف إليها دلالات موسّعة ويشحنها بمعاني رمزيّة ممّا يجعل القارئ محتاجا إلى التدبّر والتأويل وإعمال الفكر ليقف على المقاصد والأبعاد الخفيّة، فالكتابة بالأسلوب الرمزيّ تتنكّب المجهود الأدنى في التعبير وتدفع اللغة إلى أقصى ما تسمح به من قدرة على الإيحاء والتدلال على أنّ لا يودّي ذلك إلى الوقوع في الالتباس المبهم والغموض المحيّر، فالغاية الأساسيّة التي يجري إليها الأدب هي الإبانة وكشف المعاني الخفيّة. وإذا ما حصل والتبس الرمز بشيء من الغموض فإنّ ذلك يعدّ، في نظر المسعدي، أمرا عاديّا وممكنا، فأسبابه تعود إمّا إلى "الإغراق في توسيع الآفاق الفكريّة التي يفتحها الرمز وتوحي بها الإشارة" أو عدم قدرة القارئ على تمثّل آفاق معاني الوجود لمحدوديّة تجربته الوجوديّة(28).

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

يستند المسعدي في تحديد مفهوم الرمز إلى القولة الشهيرة "ليس الشعر في أن تقول كلّ شيء بل هو في أن تحلم النفس بكلّ شيء". وهذا المبدأ هو أفضل ما يعبّر، في نظر المسعدي، عن شروط الاتّجاه الرمزيّ في الكتابة الأدبيّة، وتحقيقه يستدعي من الكاتب أن يتوخّى طريقة تستبدل المعنى الواحد للكلمات بإمكانيّة تعدّد المعاني. ويذكر المسعدي أنّ تجربته في الكتابة الإبداعيّة قامت على هذا الأساس، يقول: "وقد حاولت في كلّ ما كتبت أن لا يكون معنى الشخص- أو شخصيّته الوجوديّة- معنى فرديا محدودا مقصورا عليه كفرد، وأن لا تكون الجمل الجوهريّة من الكلام محدودة المعنى، بل كانت دائما رغبتي في أن يكون الشخص خلاصة أشخاص والجملة حبلى بعدّة معان."(29)

اللاّفت للانتباه في هذه القولة أنّها تحدّد مقومات الطريقة الرمزيّة في الكتابة الأدبيّة تحديدا يتناسب مع التصوّر الوجودي للإنسان، فمثلما يكون الكيان الإنسانيّ مشروعا مفتوحا على جميع الإمكانيات وليس معطى مكتملا بشكل مسبق تكون الدلالة في الكتابة الأدبيّة كذلك مشروعا تأويليّا غير مكتمل. وحتّى يكون النصّ الأدبيّ على هذه الصفة ينبغي أن يجيد الكاتب استخدام اللغة على نحو يكثّف طاقاتها الإيحائيّة والتخييليّة. ومن الملاحظ أنّ المسعدي لا ينظر إلى هذه المسألة من الزاوية البلاغيّة فهو لا يعنى بذكر الأساليب التفصيليّة المحقّقة للإيحاء وإنّما يعتبر الإيحاء مبدأ عامّا يتعارض مع الصورة النمطيّة على مستوى تشكيل الشخصيّة ومع وحدة المعنى على مستوى بناء الجملة. ويعني هذا أنّ من مقتضيات الإيحاء أن تكون الكتابة مغامرة تبحث عن الاختلاف والتنوّع وتؤسّس لتعدّد المعنى وكثرة الاحتمالات.

إنّ هذا النهج في الكتابة هو الذي يحقّق، في نظر المسعدي، خصوصيّة الأديب ويمنح أدبه قيمة فنيّة عالية. وهو يلحّ على أنّ هذا التميّز لا يتحقّق بمجرّد اصطناع حلول وهميّة كاستبدال اللغة باللهجة، فقد نقد ما سمّاه "القوميّة الضيّقة في الأدب" وهي التي تدعو إلى كتابة الأدب باللهجات المحلّية بدلا من اللغة العربيّة مثل اللهجة المصريّة أو اللهجة التونسيّة، ويعتبر ذلك "ضربا من الحمق" لأنّ أصحاب هذا التوجّه يعتقدون أنّه يمثّل السبيل إلى الطرافة والغرابة والحال أنّهم "لا يدركون أنّ الطرافة والغرابة، أي الصفة التي تكسب أدبا من الآداب شخصيّته لا تكون في الاعتياض عن لغة بلهجة من تلك اللغة أو عن لغة بأخرى غيرها، ولا تكون في الانصراف عن التحريك إلى التسكين أو عن "عم مساء" إلى "يمسيك بالخير"، بل في تميّز روحك عن روح غيرك واختلاف مسالكك في التفكير والإحساس والوجدان عن مسالك غيرك."(30)

لعلّنا لا نستغرب هذا الموقف من المسعدي بعد علمنا بنظرته إلى اللغة العربيّة التي يعتبرها لغة إيحائيّة، وبالتالي فهي أقرب إلى طبيعة اللغة الأدبيّة التي هي لغة رمزيّة. وفي تقديرنا أنّ هذا يكشف عن جانب كبير من

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

طبيعة الرؤية النقديّة عند المسعدي، فهي رؤية صفويّة. وتتجلّى هذه الصفويّة في تعريف الأدب وفي تحديد وظائفه وفي الحديث عن خصائصه اللغويّة والفنيّة. وقد بيّنا، فيما تقدّم، مظاهر مختلفة من هذه الصفويّة مثل إلحاح المسعدي على أنّ الأدب الذي يقصده بالتحديد هو الأدب الحقيقيّ الخالد، وتأكيده في مواضع عديدة أنّ وظيفة الأدب الأساسيّة هي التعبير عن البعد الإنسانيّ في الإنسان وإثراؤه بالأفكار السامية والقيم النبيلة، وتبعا لذلك كان لا بدّ لهذه الصفويّة أن تتجلّى أيضا في نظرته إلى اللغة الأدبيّة، فإذا كان المضمون الأدبيّ يوصف بالسموّ والرفعة فلا شكّ في أنّ اللغة التي تنقله ينبغي أن تتوفّر هي أيضا على قدر من الصفاء يجعلها تليق بمضامينها الفكريّة والقيميّة. ولهذا الاعتبار اتّخذ المسعدي موقفا رافضا من استخدام اللهجات في التعبير الأدبي بوصفها لغة من درجة ثانية قد تصلح للتواصل اليوميّ بين النّاس ولكنّها لا تصلح للتعبير الفنيّ الراقي الذي يخاطب العقل والوجدان ولا ينشد التواصل ومجرّد التعبير بل يتطلّع إلى الإمتاع والتأثير.

ويرى المسعدي أنّ الأدب لا يحقّق هذه الغاية المنشودة إذا ما هو اكتفى بمجرد الوصف السطحيّ للحياة ولم يتعمّق في حقائقها. يقول في ذلك: "فإنّه لا يكفي – في الأدب ولا في الفلسفة – أن نصف وننقد إن لم يظهر للمطالع من وراء ذلك الوصف أو النقد فكرة واضحة عن ماهية المجتمع وما ينبغي أن يكون وماهية الإنسان ومنزلته وما ينبغي أن تكون."[31] فإذا كانت الرمزيّة هي الصفة المميّزة للغة الأدب فإنّ العمق في الفكر هو الخاصيّة التي يوصف بها مضمونه. فالأدب ليس مجرّد تعبير عن الواقع كما هو وإنّما محاولة لبنائه وتشكيله وهو ما يستدعي بالضرورة فهمه وكشف أسراره الخفيّة والنفاذ إلى حقائقه المحجّبة.

ولعلّه من الواضح أنّ ما اقترحه المسعدي من تصوّرات مختلفة حول الأدب ومقتضياته الفنيّة واللغويّة والمضمونيّة تتكامل فيما بينه في إطار الترسيخ لاتّجاه أدبيّ يختلف عن غيره من الاتجاهات السائدة ويدّعي أنّه أقربها إلى حقيقته.

خاتمة

لئن جاءت آراء المسعدي متفرّقة موزّعة على أعمال مختلفة فقد تبيّن لنا من خلال دراستها وتحليلها أنّ بينها من الخيوط الناظمة ما يجعلها تبدو في صورة رؤية نقديّة متكاملة حاول صاحبها أن يقدّم تصوّرا نظريّا حول حقيقة الأدب الأصيل وشروطه. وبإمكاننا أن نختزل أهمّ الأركان التي انبنى عليها هذا التصوّر في عناصر أساسيّة هي بمثابة المقوّمات الجوهريّة للأدب الخالص ومن أهمّها أن يكون مضمونه مضمونا إنسانيّا وتكون لغته لغة رمزيّة وأن يقوم على مفهوم الالتزام وأن لا يتحوّل إلى مجرّد صناعة لفظيّة ولا يخضع للتحديدات الشكليّة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

إنّ الدارس لهذه الرؤية النقديّة يلاحظ أنّها تنبني على أساس خلفيّة فلسفيّة محدّدة تتعلّق بالفلسفة الوجوديّة في رؤيتها للإنسان والكون. وقد حاول محمود المسعدي أنّ يطبّق أهمّ مقولات هذه الرؤية على النصّ الأدبي فاشترط فيه أن يرتبط بالإنسان ويلتزم بالتعبير عن قضاياه الحقيقيّة وجعل ذلك معيارا للتمييز بين الأدب الأصيل والأدب المزيّف. كما استند المسعدي في بناء رؤيته النقديّة إلى تجربته الإبداعيّة فاتّخذ طريقته في الكتابة منطلقا للتعميم وبناء نموذج اعتقد أنّه الصورة المثلى التي ينبغي أن يكون عليها الأدب.

ولئن توفّرت للمسعدي الخلفيّة الفلسفيّة والتجربة الإبداعيّة فقد غابت عنه التجربة النقديّة التي تعتمد على دراسة النصوص في تنوّعها واختلافها وتعدّدها. لذلك فإنّ رؤيته مهما اتّسعت تبقى، في اعتقادنا، رؤية ضيّقة ما دامت تفتقر إلى الممارسة الإجرائيّة التي تبنى عليها التصوّرات النظريّة، ولعلّ هذا ما يفسّر تلك النزعة الصفويّة التي قامت على وضع شروط وضوابط مضمونيّة ولغويّة وفنيّة ضيّقت مفهوم الأدب وحصرته في مجال نخبويّ محدود، والحال أنّ الأدب هو أكثر المجالات استعصاء عن التحديد ما دامت أهمّ خاصيّة تميّزه تكمن في مبدأ "الأخذ من كلّ شيء بطرف".

الهوامش

1- الأعمال الأدبية لمحمود المسعدي هي:

- "حدّث أبو هريرة قال..." رواية كتبها المؤلّف سنة 1939، وصدرت أوّل مرّة عن الدار التونسية للنشر سنة 1973، ثمّ أعيد طبعها في دار الجنوب للنشر سنة 1979، ترجمت إلى الألمانية سنة 2009. وقد اختيرت من اتحاد الكتاب العرب كتاسع أفضل مائة رواية عربية.

- "السد": مسرحية ذهنية ألّفها المسعدي سنة 1940، وصدرت لأوّل مرّة عن شركة النشر لشمال إفريقيا سنة 1955، ثمّ أعيد نشرها عن دار الجنوب للنشر سنة 1992. ترجمت إلى الألمانية ونشرت في أكتوبر 2007.

- "مولد النسيان" نشرت للمرة الأولى عام 1945، وأعادت نشرها الدار التونسية للنشر سنة 1986. ترجمت إلى الفرنسية (1993) والهولندية (1995) ثمّ ترجمت إلى الألمانية وصدرت في مارس 2008.

- من أيام عمران و تأملات أخرى، تحقيق و تقديم محمود طرشونة، تونس : دار الجنوب للنشر،2002.

2- محمود المسعدي، تأصيلا لكيان، تونس: نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، مطبعة كوتيب، 1979.

3- نشره ضمن مجلّة المباحث عدد 12 من السلسلة الجديدة – مارس 1945. وفي كتابه "تأصيلا لكيان" ص ص 21-28.

4- نشره في مجلّة المباحث عدد 21 من السلسلة الجديدة – ديسمبر 1945، وفي كتابه "تأصيلا لكيان" ص ص 30- 35.

5- نشره بجريدة الصباح يوم 2 فيفري 1952. وفي "كتابه تأصيلا لكيان" ص ص 36- 37.

6- حوار منشور ضمن مجلّة الندوة التونسيّة عدد 2، السنة الرابعة، فيفري 1956. وفي كتاب "تأصيلا لكيان" ص ص 38- 45.

7- محاضرة شارك بها في أعمال المؤتمر الثالث للأدباء العرب بالقاهرة بين 9 و 15 ديسمبر 1957. نشرت ضمن كتاب "مؤتمر الأدباء العرب" الدورة الثالثة، القاهرة، 1957. وضمن كتاب "تأصيلا لكيان" ص ص53-61.

8- نشرت تباعا في مجلّة "الحياة الثقافيّة" التونسيّة عدد 5، جانفي/ فيفري 1976، عدد 6، مارس / أفريل 1976، عدد 8، جويلية / أوت 1976. وضمن كتاب "تأصيلا لكيان" ص ص 62- 84.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534

9- محاضرة ألقاها المؤلّف في المؤتمر الحادي عشر للأدباء العرب المنعقد في طرابلس بليبيا في شهر سبتمبر سنة 1977. نشرت ضمن كتاب "تأصيلا لكيان" ص ص 97- 111.

10- افتتاحية مجلّة المباحث عدد 5، 1944. ضمن كتاب "تأصيلا لكيان" ص ص 117-118.

11- افتتاحيّة مجلّة المباحث، عدد 9 من السلسلة الجديدة، ديسمبر 1944. ضمن كتاب "تأصيلا لكيان" ص ص 124- 125.

12- أبو العتاهية كما يراه صاحب الأغاني، ضمن كتاب "تأصيلا لكيان" ص 21.

13- خواطر في الفنّ الإنسان وغصّته، ضمن كتاب "تأصيلا لكيان" ص29.

14- في الأدب، ضمن كتاب "تأصيلا لكيان"، ص ص 36-37.

15- محاضرة للمؤلّف في الأدب عامّة وأدبه هو خاصّة، ضمن كتاب "تأصيلا لكيان"، ص64.

16- المصدر نفسه، ص 75.

17- المصدر نفسه، ص67.

18- محاضرة للمؤلّف في الأدب عامّة وأدبه هو خاصّة، ضمن كتاب "تأصيلا لكيان"، ص ص 64-65.

19- المصدر نفسه، ص65.

20- نظرة في الأدب ومناهبه، ضمن كتاب "تأصيلا لكيان"، ص 43.

21- خواطر حول الأدب ومضمونه الفكري، ضمن كتاب "تأصيلا لكيان"، ص 99 .

22- أبو العتاهية كما يراه صاحب الأغاني، ضمن كتاب "تأصيلا لكيان"، ص 21.

23- نظرة في الأدب ومذاهبه، ضمن كتاب "تأصيلا لكيان"، ص39.

24- المصدر نفسه، ص 42.

25- المصدر نفسه، ص 39.

26- محمود المسعدي، السدّ، تونس: دار الجنوب للنشر، 1992، ص 109.

27- نظرات في الأدب، ضمن كتاب تأصيلا لكيان، ص40.

28- المصدر نفسه، ص41.

29- المصدر نفسه، ص ص 40-41.

30- القوميّة الضيقة في الأدب، ضمن كتاب "تأصيلا لكيان"، ص117- 118.

31- خواطر في الأدب، ضمن كتاب "تأصيلا لكيان" ص103.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/534